الوحدة الخامسة

المفهوم السيكولوجي_النفسي للمجتمع

The Psychological Sense of Community
McMillan & Chavis (1986)

طور الباحث والأخصائي النفسي (سيمون سارسون) مصطلح "المفهوم السيكولوجي للمجتمع" في كتابه الشهير عام 1974، وحاجج بأن يصبح هذا المفهوم اللبنة الأساسية في علم نفس المجتمعي مدعياً بأن المفهوم السيكولوجي للمجتمع يعتبر من أهم القواعد الأساسية لتعريف الذات عند الفرد. لقد أحدث التطور النظري هذا المفهوم تحولاً جوهرياً في مسار البحث العلمي في علم النفس المجتمعي حيث شغل اهتمام العديد من الباحثين والمفكرين إلى أن أصبح من أحد المصطلحات والمفاهيم المركزية في هذا الحقل مع منتصف ثمانينات القرن الماضي.

من بين العديد من النظريات التي عالجت "المفهوم النفسي للمجتمع"، تعتبر نظرية مكميلان وشافيز (1986) الأكثر تأثيراً حيث أنها ما زالت تشكل نقطة الانطلاقة للعديد من الأبحاث والدراسات العلمية في علم النفس المجتمعي حول المفهوم النفسي للمجتمع. لقد عرف مكميلان وشافيز المفهوم النفسي للمجتمع بأنه "الشعور بالانتماء للمجموعة، الشعور بأن الأعضاء يعنون شيئاً لبعضهم البعض وللمجموعة، الإيمان المشترك بأن حاجات الأفراد ستتحقق من خلال التزامهم بالبقاء موحدين مع الآخرين". يتكون المفهوم السيكولوجي للمجتمع من أربع عناصر أساسية:

1. العضوية الجماعية

العنصر الأول من عناصر المفهوم السيكولوجي للمجتمع هو الإدراك بالعضوية في هذا المجتمع. هنالك خمس مواصفات لمفهوم العضوية المجتمعية حيث تتلخص في التالي: (1) الحدود الاجتماعية (2) الأمان العاطفي (3) الشعور بالانتماء والتماثل مع المجتمع (4) الاستثمار الشخصي في الانتماء المجتمعي (5) وجود شبكة رموز مشتركة.

الحدود الاجتماعية التي تفصل وتميز بين مجتمع ومجتمع آخر تحددها عوامل مثل اللغة، اللباس، العادات والتقاليد التي تشير إلى من يتبع ومن لا يتبع للمجتمع المحدد. تتفاوت المجتمعات بين تلك التي توجد لها حدود اجتماعية واضحة وصارمة وبين تلك التي تتميز حدودها الاجتماعية بدرجة واضحة من المرونة والضبابية. المجموعات التي تميز حدودها الاجتماعية درجة من المرونة وعدم الوضوح، تنظر إلى الأفراد الخارجيين أو "الشواذ" عن المجموعة بشي من الدونية وحتى من الممكن نبذهم وعقابهم. الحدود الاجتماعية تعتبر العنصر الأكثر إثارة للجدل في مفهوم العضوية، ولكن مع ذلك فكثيراً ما يتم تجاهل حاجة أعضاء الجماعات المختلفة إلى بعض الحدود الاجتماعية، التي تفصل بين من يتبع ومن لا يتبع للجماعة وتوفر الحماية لعلاقاتهم الاجتماعية الحميمة.

المواصفات الأربع المتبقية لمفهوم العضوية هي "الأمان العاطفي" (أو بشكل عام الأمان والاستعداد للتعبير بشكل حر عن شعورنا)، "الشعور بالانتماء والتماثل" (التوقع والإيمان بأنك تتبع للمجتمع وتقبل المجتمع لك)، "الاستثمار الشخصي" (نظرية التنافر المعرفي)، "وشبكة الرموز المشتركة" (فهم شبكات الرموز المشتركة يعتبر عامل أساسي لفهم المجتمع، حيث يعتبر الرمز بداية العالم الاجتماعي كما نعرفه).

تلعب الرموز دوراً وظيفياً على عدد كبير من المستويات الاجتماعية. على مستوى "الحارة" مثلاً من الممكن أن تجد الرموز في اسم المكان، بعض المعالم، الشعار أو حتى أسلوب البناء. على المستوى الوطني تجد رموز عديدة مثل العلم، الأعياد، اللغة القومية. تستعمل المجموعات المختلفة رموز كثيرة مثل الطقوس، الاحتفالات، الشعائر، الخطاب، واللباس حتى تعرف الحدود التي تفصل بين من يتبع ومن لا يتبع، بين من هو عضو ومن هو ليس عضو في الجماعة.

2. التأثير المتبادل

التأثير في المجتمع هو باتجاه متبادل بين الفرد والجماعة. من جهة أولى يجب أن يشعر عضو الجماعة بالتمكين حتى يتسنى له أن يؤثر في ما تقوم به الجماعة (وإلاّ سيحد عدم وجود التمكين من دافعية الأعضاء للمشاركة)، وبالمقابل فإن تماسك الجماعة يعتمد على كونها لديها درجة من التأثير على أعضائها. هذان العاملان، على الرغم من ما يبدو من تناقض بينهما من حيث اتجاه عملهما، فإنهما في تناغم مستمر ويؤثر بشكل متواصل أحدهما في الآخر. الأشخاص الذين يؤكدون دائماً بأن حاجات وقيم ومعتقدات الآخرين تعني لهم شيئاً، هم عادة الأشخاص الأكثر تأثيراً في

الجماعة. بالمقابل، الأشخاص الذين دائماً يحاولون التأثير والهيمنة على الآخرين متجاهلين بذلك تطلعات وأفكار الآخرين، هم عادة الأعضاء الأقل قوة في الجماعة.

هنالك علاقة إيجابية بين تماسك الجماعة وبين الضغط على الأفراد للانصياع لأهداف الجماعة. ولكن بالمقابل، فإن الضغط باتجاه الانتظام والاتساق هو عامل تبادلي، حيث أنه ينبع من الفرد كما من الجماعة. وهذا ما يؤكد لأعضاء الجماعة بأنهم يعيشون تجربة شبيهة لباقي أعضاء الجماعة.

تعتبر الثقة المتبادلة بين أفراد الجماعة العامل الأساسي في عملية التأثير. من الممكن تلخيص دور القوة والتأثير في المجتمع في جملة واحدة وهي أن عملية التأثير المتبادل تحدث بشكل متزامن لأن النظام، والسلطة، والعدالة تخلق المناخ المناسب لتبادلية القوة في المجتمع.

3. دمج وتلبية الاحتياجات

مفهوم الاحتياجات هنا يعتبر أوسع وأشمل من المفهوم المتداول تقليدياً في علم النفس (الاحتياجات الأساسية للبقاء). يدخل ضمن الاحتياجات هنا توقعات الفرد والعناصر القيمية التي يصبو لتحقيقها والحصول عليها ما بعد الاحتياجات الأساسية. يبدو أعضاء الجماعات وكأنه يتم مكافئتهم بطرق ووسائل مختلفة فقط لمشاركته في نشاطات الجماعة وهو ما درج تسميته "الملائمة بين الفرد والبيئة". هذه الملائمة بين الفرد والبيئة تضم المكانة التي توفرها عضوية الجماعة للفرد بالإضافة إلى الفائدة المرجوة من الإمكانيات التي يجلبها أعضاء الجماعة الآخرين. تلعب القيم المشتركة دوراً رئيسياً في تحديد الاحتياجات التي تتعدى في أهميتها تلبية الاحتياجات الأساسية.

في نظرية سارسون الأصلية تم التطرق إلى نفس المفهوم على أنه الاعتراف بوجود الاعتماد المتبادل مع الآخرين والقابلية للحفاظ على هذا الاعتماد المتبادل من خلال إعطاء الآخرين أول العمل لهم ما نتوقع أن يعملوه لنا.

إدراك التشابه مع الآخرين والتجانس داخل الجماعة تساهم في تفاعل الجماعة وتماسكها، وعليه من الممكن التأكيد على أن "البحث عن التشابه" يعتبر ديناميكية أساسية في تكوين وتطور المجتمع. هذا هو العنصر الأساسي في عملية التبادلية الاجتماعية بين الفرد والجماعة.

4. الترابط العاطفي المشترك

يعتبر الترابط العاطفي المشترك العنصر الأساس في تكوين المجتمع، حيث يدخل ضمن هذا الترابط العاطفي التاريخ المشترك (المشاركة في هذا التاريخ المشترك أو التماهي معه على أقل تقدير). يصبح التاريخ المشترك عبارة عن "رواية" المجتمع التي تتمثل في الفن بالمفهوم الأوسع للكلمة. هنالك سبع مكونات للترابط العاطفي المشترك:

1. فرضية الإتصال: كلما ازدادت إمكانية التفاعل الشخصي بين الأفراد، تزداد إمكانية أن يصبح الأشخاص مقربون أكثر لبعضهم البعض
2. طبيعة وجودة التفاعل بين الأشخاص تزين من فرصة التقارب بينهم
3. التفاعل غير واضح المعالم والمهام الغير منجزة تحد من تماسك الجماعة
4. فرضية الحدث المشترك: كلما ازداد أهمية الحدث المشترك للجماعة (أزمة أو كارثة) يزداد ترابط الجماعة
5. الإستثمار: بدرجة أبعد من مفهومي الحفاظ على الحدود والتنافر المعرفي، يصبح المجتمع أكثر أهمية إلى الشخص الذي قدم كمية أكبر من الوقت والطاقة للمجتمع
6. أثر الكرامة أو الإهانة على أعضاء المجتمع: يشعر الشخص الذي تم تكرمه بالتلاحم والجاذبية أكثر مع المجتمع من الشخص الذي تمت إهانته أمام هذا المجتمع
7. الترابط الروحاني: بالرغم من صعوبة تعريف هذا المصطلح إجرائيا، إلا أنه متواجد بدرجات متفاوتة في كل المجتمعات.

التفاعل داخل وبين العناصر

بعد تعريف مفصل للعناصر الأربعة التي تشكل المفهوم النفسي للمجتمع، تتحدث النظرية عن الديناميكية والتفاعل داخل هذه العناصر وبينها. فيما يخص العنصر الأول من عناصر المفهوم النفسي للمجتمع (العضوية) فإن المواصفات الخمس لمفهوم العضوية (الحدود الاجتماعية، الأمان العاطفي، الشعور بالانتماء والتماثل مع المجتمع، الاستثمار الشخصي في الانتماء المجتمعي، ووجود شبكة رموز مشتركة) تتداخل فيما بنها على صيغة دائرية ودعم–ذاتي، في جميع الحالات التي تضم مسببات ومخرجات السلوك.

في مثال مأخوذ من السياق الجامعي، تحاول النظرية توضيح بعض ملامح الديناميكية بين العناصر المختلفة: يضع أحدهم إعلاناً على لوحة الإعلانات في مساكن الطلبة حول تأسيس فريق كرة سلة لقاطني مساكن الطلبة. يحضر الناس الاجتماع الأول لتشكيل الفريق كغرباء تدفعهم حاجاتهم الشخصية (دمج وتلبية الحاجات). الفريق محدد بموجب أماكن السكن في مساكن الطلبة (حدود العضوية معرفة) حيث يمضي أفراد بعض الوقت معاً خلال التدريب (فرضية الاتصال). يلعب أعضاء الفريق مباراة ويفوزون بها (حدث مهم مشترك). خلال المباراة، يبذل اللاعبون طاقة في مصلحة الفريق (استثمار شخصي في الجماعة). فيما يواصل الفريق الفوز في المباريات، يتم الاعتراف بأعضاء الفريق وتكريمهم (الحصول على التكريم والمكانة بموجب العضوية). يقترح بعض الأعضاء شراء لباس موحد للفريق (رموز مشتركة) وفعلاً يقومون بتحقيق ذلك (التأثير).

References

McMillan, D.W., & Chavis, D.M. (1986). Sense of community: A definition and theory. *American Journal of Community Psychology*, 14(1), 6-23.